الاسلام

كان جو العالم فى القرن السادس متلبدا بغيوم الاضطرابات والفتن فبعد ان بدأ جوستنيان أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية (٥٢٧ — ٥٦٥) ظهر بعده أباطرة ضعاف لم يزيدوا الدولة إلا خبالا ، إلى أن اعتلى العرش هرقل الأول — (٦١٠ — ٦٤١) فحاول أن ينهض بها ، ولكن النوائب ما فتئت تحل بالدولة من جراء المنازعات الدينية التى شغلت أذهان الناس حتى اضطر هرقل أن يقضى أكثر وقته فى محاولة حسمها

ولما قويت شوكة الفرس فى عهد كسرى الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨) كسبوا عدة انتصارات باهرة ضد الدولة البيزنطية ، فأخذ كسرى دمشق والقدس عام ٦١٤ ثم استولى على مصر عام ٦١٩ وبذلك قضى على معظم أملاك الدولة البيزنطية فى الشرق

إلا أنه ما كاد كسري يستولى على هذه الأملاك حتى ظهر هرقل وصمم على إعادة مجد الدولة فجمع قواته وحارب الفرس وهزمهم فى عدة مواقع أهمها موقعة نينوى « ٦٢٧ » ولكن بينما كان الروم منتصرين فى الشرق كان الفرس يهددون القسطنطينية فى الغرب وما لبث أن خرج ابن كسرى على أبيه وقتله وعقد الصلح مع الأمبراطور ، على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه أولا

وبينما كان أكبر ملوك الأرض إذ ذاك يجدان فى توطيد ملكهما وتنظيم قواتهما إذ وصلت إلى كل منهما سنة ٦٢٨ م رسالة من شخص غير معروف لهما يدعوهما فيها للايمان بدين جديد ، أما الأمبراطور فلم يأبه للدعوة ، وأما كسري فانه غضب ومزق الرسالة ورمى بها فى وجه حاملها

أما الرسالة فهى رسالة الاسلام لصاحبها محمد نبى الله الجديد

كانت عظمة الأمبراطورية الفارسية والبيزنطية مجرد مظهر كاذب فقد كان يسرى فى كيان هاتين المملكتين داء كمين وظل السوس ينخر فى عظامهما دائبا فى تقويض أركانهما بسبب ما أظهرتاه من عسف وجور مهلكين ، هذا إلى ما حدث من الفواجع التى كانت سلسلة متصلة الحلقات من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء

فى عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ظهر الاسلام فجأة من بين تلك الصحراء التى لا يكاد يعرفها أحد ، وأخذ المسلمون يمثلون دورهم على مسرح الحياة ، بعد أن كانوا شعبا نهبا مقسما . تناوىء كل قبيلة منه القبيلة الأخرى فيحتدم النزاع وتقع الحرب الطاحنة

كان العرب يعبدون فى أول امرهم الأصنام والأوثان ، وكان لكل قبيلة إله خاص بها تكل العناية به الى أسرة بعينها منوط بها رعايته وتلبية رغباته ، وكانت هذه تقوم بحراسته وتعظيم شأنه

كما تؤدى له حقه من المراسيم الكهنوتية والطقوس الدينية التي تقيمها فى محرابه ، وكانت تحرص كل قبيلة على صنمها وتشيد بذكره وتفرده بأقصى ما تستطيع من حب لأنها ترى فيه نوعا من الملكية ، وكان الكهان ينضحون عنه ، دائبون فى طلب القرابين لذلك النصب ، وان كانوا فى الحقيقة يطلبونها لأنفسهم ويجرون المغانم لهم باسم الله تعالى

وكانت مكة حاضرة الثقافة فى أواسط بلاد العرب ، وقد بنتها قريش فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، المحراب الذى يفخر به كل من يملكه ويقع فى حوزته . ذلك هو محراب الكعبة ، وهو أقدم من المدينة نفسها بكثير ، وأن جدد وأعيد بناؤه عدة مرات ، وهو مؤلف من أربعة حوائط مبنية بحجارة لم يهذ بها الصقل وقد رصف بعضها الى بعض دون أن يتخللها الملاط ، وقد غطيت بقطعة من القماش ، أما ارتفاعها فانه يزيد على ارتفاع الرجل . وأما مساحتها فتبلغ مائتى قدم

وكان هبل اسم الصنم الرئيس بين أصنامهم . وكان ربا لقبيلة قريش منذ النصف الأول من القرن الثالث . وهو تمثال عقيق . جلبه من الخارج بعض الرؤساء

لم تكن الكعبة ملكا للقرشيين . بل كانت ملكا مشاعا لأكثر القبائل التى تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية العامة ومن ثم كان للكعبة صبغة عالمية عندهم

وقد وضعت كل قبيلة من تلك القبائل صنمها الذي تعبده فى ذلك المحراب حتى زاد عدد الأرباب التى بها على الثلثمائة . وكان التسامح الدينى سائداً وقد وصل بهم الى أعظم حدوده فقد كان بالكعبة خلاف الأصنام صورة ابراهيم الخليل وصور الملائكة وصورة العذراء مع طفلها عيسى . مع انهم كانوا لا يقدسون شيئا كما يقدسون الحجر الأسود ويزعم الكثيرون انه أحد الرجوم الساقطة من السماء

بلغ احترام العرب للكعبة حد التقديس . وزاد اجلالهم لها فقدسوا ما جاورها من البقاع . التى جعلت عليها الكعبة مسحة القداسة . وأصبح ما يكتنفها الى مابعد عدة فراسخ حراما لا يجوز لكائن أن يفتك بسواه فيها أو يصطاد من حيوانها . احتراما لها . وكان يؤم الكعبة كل عام جمهور ضخم من الناس من شتى الأنحاء . لتأدية الشعائر الدينية المقدسة فيها . أما العبادة فكانت بسيطة تنحصر فى التضرع للأصنام . وطلب معونتها . ثم تقدم القرابين . وكانت تنقسم الى قسمين : — أحدهما وقف على الله — وهذا من نصيب المعوزين أبناء السبيل الذين يحلون ضيوفا على أهل القبيلة . والآخر وقف على النصب وهو من نصيب الكهنة وحدهم . ولكن مالبث الفساد أن دب فى هذه المراسيم ففقدت معناها الأول فى القرن السادس من الميلاد وتغير جوهرها فأصبحت طائفة من الخرافات والاوهام . التى يحبها العقل . وأخذ الكهنة يخدعون العباد . فاذا

قدمت. القرابين استأثروا بها لأنفسهم وحرموا المعوزين منها . بل ان العباد أنفسهم أخذوا يخدعون الآلهة . فقد تنزل بأحدهم كارثة فينذر لأحد الاصنام أن يذبح نعجة قربانا له اذا انكشفت غمته فلا يكاد يزول عنه الخطر حتى يستبدل النعجة ـ وهي ذات قيمة عنده ـ بغزال لا يكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده . يفعل ذلك وهو معتقد أن ذلك المعبود لا يكاد يفرق بين النعجة والغزال

كانت ديانة العرب الاولى واهية لا ترتكز على أساس متين . فكان من اليسير على العرب أن يقبلوا دينا آخر فيدينوا بالمسيحية واليهودية مثلا لانتشارهما فى كثير من بلاد العرب . الا انه لم يكن للمسيحية تأثير قوى فى أنفسهم . فقد كان المتدينون من العرب فيها اقلية لانها تبشر بالسلم وتأمر بالاغضاء والابتعاد عن الحروب . ولم يكن فى استطاعة العرب أن يبتعدوا عنها كما أن جل الغنائم والانتفاع بها لم يكن فى شيء من الدين المسيحى أو اليهودى . أما حظ اليهودية فى اجتذاب العرب اليها فلم يكن أكثر من حظ المسيحية . فقد رحلت جمهرة كبيرة من اليهود بعد أن شردهم الامبراطور هادريان فوجدوا فى بلاد العرب ملجأ لهم ولكن الذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الامة الاسرائيلية لم تمل بوجه عام الى ارغام الامم على اعتناق دينها وان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود . ويعتقد اليهود من ناحية أخرى بأن اليهودية لا تلائم الا شعبا مختارا . أما ان تكون دينا عاما للناس فلا . ذلك انها ملأى بالشكايات والآمال الغامضة التى تعلق بها اليهود بعد أن خرب بيت المقدس . وليس هذا مما يلائم طبيعة العرب ولولا ذلك لكان فى قدرة اليهودية أن تبسط نفوذها الدينى على العرب

أما ديانة العرب التى ألفوها فلم تكن مهيمنة على نفوسهم ومشاعرهم بل كانت ضعيفة الاثر قليلة الخطر . ولكنها كانت دين سوادهم . والحق أن أحدا لم يكن مضطرا الى العقيدة . بيد ان القضاء على عبادة كان يدين بها أجدادهم وآباؤهم من قبل كان يثير فى نفوسهم كبرياءهم القومى

كانت الدينة فى نظر العربى القديم أمراً لا خطر له . وآية ذلك ان شعراء الجاهلية لا نكاد نراهم يذكرون دينا أو عقيدة فى أشعارهم . ولو فتشنا أناشيدهم لم نر فيها — اذا استثنينا أسماء الآلهة وبعض الشعائر المختلفة — الا عبارات مقتضبة لا نكاد نعثر فيها على ذكر لعباداتهم القديمة . لقد عاش العرب للحياة الحاضرة ولم يشتغلوا أذهانهم بشيء من مسائل ما وراء الطبيعة . وكان مؤمنوهم تابعوهم فى ذلك الشعور ويصدرون عنه . ومع كل هذه الاعتبارات فقد وجدت لهذه القاعدة شواذ . فان وجود جماعات شتى من متألهى العرب الذين يدينون بوحدانية الله وان اختلفت وجهاتهم وتباينت نحلهم لتدين بعضهم باليهودية أو المسيحية كان أمراً له خطره عند العرب وله ثره فى نفوسهم . اذ كان أولئك المتألهون لا يفتأون يبثون عقائدهم فيمن حولهم من العرب .

ومن ثم رأينا فى أواخر القرن السادس الميلادي لبعض الشعراء دلائل وآثارا لايمان عميق بوحدانية الله . ورأينا منهم شعورا يقظا بالتبعة المترتبة على ما تصنعه أيديهم من خير أو شر . وهذه الفئة التى ترى هذا الرأى هى طائفة الحنفاء

يجتهد العالم ولهاوزن فى أن يبرهن أن الحنفية كانت مذهبا نصرانيا ذائع الصيت فى بلاد العرب ولكن ليزنسكى يعارض ويقول أن الحنفية لم تكن نصرانية البتة كما لم تكن مذهبا معينا . بل كان هناك اشخاص من مفكري العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية ودخل بعضهم فى اليهودية ودخل بعض آخر فى النصرانية وبقى جماعة منهم غير متمسكين بدين من الاديان

شملت الحنفية فى الواقع كثيرا من التعاليم اليهودية والنصرانية وذلك لشدة انتشار هاتين العقيدتين فى بلاد العرب ، ومما يستشهد به المستشرق دوزى عن هذا الانتشار هو أن حرم مكة قد عمر بواسطة بطون بنى شمعون اليهود وأن تقاليد الحج والطواف حول الكعبة ليست الا وراثة اسرائيلية قديمة ، حتى أن ابن هشام كثيرا مايتحدث عن حرم مكة وبنائه واشتراك ابراهيم واسماعيل والملائكة فى تقديسه بشكل يشبه مايقصه التلمود عن بناء الهيكل المقدس باورشليم وعلاقة الآباء الاقدمين به وتقديس الملائكة له حتى يخيل للقاريء فى أثناء قراءة كتاب السيرة لابن هشام فى هذه الموضوعات أنه يقرأ صحف التلمود القصصية

كان لانتشار اليهودية تأثير عظيم فلم يقتصر على المراسيم والطقوس بل تعدي ذلك الى الاساطير التى تبودلت وكان اهمها مارسخ فى نفوس اليهود ومعاصريهم من اعتقاد قوي بمجيء مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء فكان لهذا الاعتقاد اثر كبير فى انتشار الاسلام كما كان سببا فى ظهور النصرانية من قبل عند طائفة خاصة من اليهود وكما كان سببا لظهور عدة أشخاص من اليهود فى القرون القديمة الوسطى بمظهر الانبياء والمرسلين حيث عرضوا على اخوانهم تعاليم دينية جديدة وادعوا لأنفسهم دعوة المسيح المنتظر

كان هذا الاعتقاد من العوامل المهمة التى أدت الى انتشار الاسلام اذ كان العرب يسمعون من اليهود فى اثناء أوقات الشدة والازمات أن المسيح المنتظر سيأتى ليتغلب على اعداء الشعب المختار

وكانت شريعة الحنفاء سمحة رشيدة واضحة الحجة سهلة الاقناع لهؤلاء العرب العمليين ، وهى فى جوهرها صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة ، ولم يكن ينقصها لبلوغ هذه الغاية الا أن تكون عقيدة ثابتة مستقرة وأن تكون لها هيئة روحية ذات سيادة دينية ، وأن تكون منزلة من السماء ، أو تفهم على انها كذلك

وهذا هو العمل العظيم الذي أخذ محمد على عاتقه القيام به ليتم نقص الحنفية . ولكن هذا العمل — على مافيه من صعوبة — قد ضوعفت مصاعبه لأن العرب لم يكونوا فى حاجة الى الدين فحسب ، بل كانوا الى ذلك ينفرون بطبيعتهم من كل مظهر من مظاهر العبادة ومراسيمها كما كانوا يكرهون الفروض الغامضة ، والمعميات التى تتصل بما وراء الطبيعة ولابد من اقناع حازم ويقين لايتزعزع للتغلب على هذه العقبات

نشأ محمد عفيفاً ، شريف المقصد ، صادق الحديث ، عظيم الأمانة ، كان مبغضا لعبادة الاصنام وشرب الخمر ولعب الميسر وكل ماكانت تدين به الجاهلية . بجانب هذه الصفات الاخلاقية العظيمه امتاز محمد بعبقرية فذة مكنته من أن يكون صاحب رسالة وزعيما ومشرعا

اصطدمت تلك الصفات العظيمة التى جبل عليها محمد ببيئة فاسدة فدفعته الى التفكير فى اصلاح هذه البيئة والسير بها الى مثل أعلى ينطوي على الرقى والتقدم . ومن ثم انصبت جهود محمد على اصلاح الحالة الاجتماعية فى بلاد العرب . فابتدأ يدعو سراً الى دين جديد هو الاسلام . اساسه الاعتقاد بالله الذي لاشريك له رب العالمين وخالق كل مافى الوجود ، وهناك وراء هذه الحياة . حياة أخرى ويومها يوم القيامة ويوم الحساب . المثوبة على العمل الصالح والعقوبة على العمل السيء — وكل عمل اتاه الانسان يسجل عليه ثم يقدم له يوم القيامة . وقد جعل للمثوبة والعقوبة دارين : دار المثوبة وهى الجنة ودار العقوبة وهى النار — ووراء هذا العالم العادي عالم آخر روحى ، وفيه نوعان من الأرواح : نوع خير يطيع الله مأمره . ويحبب نفوس الناس الى الخير ويسمى الملائكة — ونوع شرير يستغوي النفوس الى الشر ويسمى الشياطين

أسلم على يد محمد كثير من المتصلين به وأخذ يزداد عددهم ، فلم تنقض ثلاثة أعوام على ابتداء الدعوة حتى أخذ يبشر بها جهرا

نبذ أهل قريش دعوته وعملوا على ابطالها بكل قواهم ، فاخذ يدعو القبائل فى الأسواق ومواسم الحج الى توحيد الله . فاستجاب له بعض أهل المدينة فاسلموا ورجعوا الى قومهم ، فاسلم كثير على أيديهم وأخذ الأسلام ينتشر فى المدينة ، حتى بايع بعضهم محمدا فى أحد المواسم على الايمان والمدافعة عن دعوته بالسيف . ولما علمت قريش أن أهل المدينة بايعوا النبي ، وانه عزم على الخروج اليهم خافوا أن يؤلبهم عليهم ويغزوهم فى دارهم فعزموا على قتله ولما علم بذلك خرج مع أبى بكر مهاجرا الى المدينة سرا . ففرح به أهلها ، واتخذها دار اقامته وبنى بها مسجده العظيم ، أحد الحرمين الشريفين . ثم تلاحق به أصحابه من مكه فسماهم المهاجرين وسمى أهل المدينة الانصار ، ثم أخذ ينشر دينه بالدعوة اليه مع حماية هذه الدعوة بالسيف

وفى سنة ٦٣٢ م قبض محمد لغير وصية بالخلافة فتنازع المهاجرون والأنصار فى أمرها ، وبعد

خد ورد وامتناع من بعضهم انتخب أبو بكر خليفة ، فاخذ يتم الحروب التى ابتدأها محمد قبل وفاته

الا أن بعض العرب لم تكد تسمع بموت النبي حتى ارتدت عن الاسلام ، وبعضها منع الزكاة الا أهل المدينة ومكة والطائف ، وكاد الاسلام يقتلع من أصوله ويذهب كأن لم يكن ، فاستفز ذلك غضب أبى بكر وبعث الجيوش لمحاربة المرتدين . فكانت حروب الردة — التى أريقت فيها الدماء واقترف العرب من الفضائع فيها ما لم يعرفه الأسلام قط ، فكانوا اذا انهزم العدو تعقبوه ونكلوا به لأن الردة جزاؤها القتل لاهوادة فى ذلك ولا رحمة

وأخيرا تم النصر لأبى بكر فوجه هؤلاء البدو الظامئين الى الدماء الى مهاجمة فارس والامبراطورية الرومانية وذلك ليشتغل العرب عن التفكير فى خضوعهم ولا يدع لهم وقتا كافيا لذلك ، وقد رأى أن خير مايربطهم بالأسلام لايكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية ومايجره ذلك من الغنائم

وهكذا انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة فقد كان عقاب الردة القتل ، ومن هنا تظاهر الكثيرون بالاسلام ووقفوا عند هذا الحد

واذا استثنينا صفوة المسلمين ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون اليهم بسبب ، لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عددا غاية فى القلة ، أما العرب الذين استوطنوا افريقيا فقد ظلوا حتى بعد مضى قرن من الهجرة لايعرفون من الاسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر

اما أولئك الذين استوطنوا مصر فانهم ماتحدثوا عن الأسلام أو شغلوا به أنفسهم قط وكانوا لايذكرون إلا أيام الوثنيه وعهودها الطيبة بالثناء والحنين

ثم لما انتهت خلافة أبو بكر وعمر وعثمان وجاءت نوبة خلافة على ثارت عليه عواصف الفتن والدسائس وانقسم المسلمون . طائفه معه وسميت شيعة على وطائفة عليه وسميت شيعة بنى أميه ، ثم انتهى الامر بقتله غيلة ، ثم بموت ابنه الحسن وقتل اشياع بنى أميه ابنه الحسين المطالب بالخلافة بعد أخيه فحرم نسله من الخلافه . فكان ذلك سببا فى استفحال العداوة بين شيعة أميه وشيعة على التى انضمت لها جماعة المسلمين فاضطرت شيعة على أن تعمل فى السر لأعادة الخلافه للعلويين ، وغلا أكثرهم حتى ادعى انها لم تصلح ولن تصلح لغير أهل البيت من أولاد على ، فانكر عليهم بقية المسلمين ذلك وظهر بجانب السنيين والشيعة الخوارج وكانوا يرون أن الخلافه يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين . والمرجئه وهم لا يتحدون أحد الفرق السابقه بل يقابلونها باللين والتسامح

منذ أن فتح العرب أغلب الممالك المجاورة لهم دعوا أهلها الى الدخول فى الاسلام فان اسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء وان لم يسلموا دعوهم إلى أن يقبلوا حكم العرب ويبقوا على دينهم إن شاءوا ويدفعوا الجزية فيصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم . وكانوا فى ذمة المسلمين يحمونهم

ويدافعون عنهم من أجل هذا كانوا يسمون أهل الذمة . وأن لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقتلوا

وكانت معاملة المسلمين أهل الذمه تختلف باختلاف العهود المعطاة لكل طائفه منهم . وباختلاف القابضين على زمام الأحكام من المسلمين . وتنحصر أوجه الاختلاف فى العهود فى شدة أو قلة المقاومه التى أبداها أهل الذمة ضد المسلمين . وفى كثرة أو قلة ثقة المسلمين فيمن عاهدوه منهم

وقد عوهد أقباط مصر فى أول الفتح على ستة شروط مستحقه : —

١ — ألا يذكر أهل الذمه كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف

٢ — ألا يذكروا رسول الله بتكذيب له أو بازدراء

٣ — ألا يذكروا دين الأسلام بذم له أوقدح فيه

٤ — ألا يصيبوا مسلمة بزنا أو باسم نكاح

٥ — ألا يفتنوا مسلما عن دينه أو يتعرضوا لحاله أو دمه

٦ — ألا يعينوا أهل الحرب . ولا يؤوا أعداءهم

ترك المسلمون المسيحيين وشأنهم فى كنائسهم وأديرتهم وأعادوا اليهم ماأخذه الروم الملكانيون منهم وأطلقوا لهم الحرية فى أن يبنوا منها ما طاب لهم ، ولم يكن للمسلمين هوى مع أحد المذهبين الذي قام النضال بينهما فى العهد الرومانى فنرجح أن كليهما قد بقيا جنبا إلى جنب يظلهما الفاتحون بذمتهم ويحمونهما جميعا بحمايتهم

أما ماكان دين التوحيد لا يحتمله من الشعائر الوثنية فقد حاربها الاسلام . غير ان العرب بعد أن صالحوا كثيرا من المسيحيين أخذ كثير من ولاتهم يشتدون عليهم وعلى الخصوص لما أفضت الخلافة إلى بنى أمية . فزادوا فى شدة الشروط السالفة ، وأغضوا النظر عما كان يرتكبه عمالهم أحيانا من المظالم فى حق النصارى ، فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويزيدون قيمة الجزية المفروضة عليهم . ففى القرن الثانى للهجرة هدم على بن سليمان بعض الكنائس فاحتج موسى بن عيسى والى مصر من قبل الرشيد بأن هذه الكنائس مما بنى فى عهد الصحابة والتابعين ووافق الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة من أحبار الأمة بارجاعها الى سالف عهدها وقالا بأنها من عمارة البلاد ، أما الاصنام والتماثيل فقد صدر أمر الخليفة بكسرها سنة ٧٢٣ م

ولما تولى العباسيون الحكم ، شرعوا فى تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها ، فأحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة ، لأنهم كانوا أهل معرفة فى الحساب ، والكتابة والخراج وفضلا عن العلوم الأخرى ، فقربوهم اليهم وأكرموهم وسهلوا لهم أسباب المعيشة ، وأغدقوا عليهم الرواتب الضخمة ، فتقاطر أهل الذمة اليهم ، وخدموا الدولة العباسية بعقولهم وأقلامهم

بأمانة واخلاص ، لذلك كان الخلفاء كثيراً ما يغضون عما فى العهود التى أخذت عليهم من التضييق على مظاهر عباداتهم يمنعونهم من احداث الكنائس أو الاحتفال بالاعياد . غير ان ذلك كله انما كان منحة يجود بها على أهل الذمة كرم أخلاق بعض الخلفاء العباسيين وسماحة صدورهم ، فيقتدى عمالهم بهم أحيانا . ولكنه لم يكن ليمحو العهود المعطاة والمأخوذة فى أيام الفتح الاولى . ولا ليشيء حقوقا جديدة لاهل الذمة فى دستور الحكم الاسلامى . فكان اذا تغير عليهم خاطر خليفة ولو كان متسامحاً ، عمد الى تنفيذ تلك العهود

ظل الاسلام عظيم الشوكة فى عهد الدولة الاموية والعباسية . الا انه بعد أيام المأمون (٨١٣ - ٨٤٣) أخذ الانحلال يتسرب الى جميع أنحاء الدولة وأخذت تتصدع وحدة الامبراطورية العربية وحلت القوميات كل الرابطة الدينية . فنشأت الدولة السامانية ببخارى . والديلمية بفارس والعراق. وبنو حمدان بالجزيرة . والطولونية ثم الاخشيدية والفاطمية والايوبية بمصر والشام ثم ورث السلجوقيون الامارات الشرقية ما عدا مصر والشام

كان السواد الاعظم من المصريين يعتنق المذهب السنى فى حين كان الشيعيون اقلية صغيرة بالنسبة الى أهل البلاد فلما تولى الفاطميون الحكم أخذوا يبثون الدعوة للبيت العلوى على انهم لم يوفقوا فى تنفيذ هذه السياسة توفيقا تاما

ألغى الفاطميون الخطبة للعباسيين وأقاموها للمعز الفاطمى ومنعوا لبس السواد شعار العباسيين وقرروا لبس الملابس البيضاء . وحرموا على الناس قراءة التسبيح فى صلاة الجمعة ونهوا عن التكبير بعد الصلاة . وغيروا من صيغة الآذان فبعد أن كانت (الله أكبر الله أكبر) أصبحت (حى على خير العمل) وهى من العبارات المألوفة عند الشيعيين . وعلى العموم غير الشيعيون أكثر العادات التى كانت مألوفة عند السنيين

استعان الفاطميون فى نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدعونهم فى جيوشهم . لبث الدعاية باسمهم . وبلغ عدد هؤلاء الدعاة اثنى عشر نقيبا . وعينوا لهم رئيسا هو داعى الدعاة . وكان له نواب ينوبون عنه فى سائر البلاد المصرية . ويحضر اليه فقهاء الدولة يتلقون منه الاوامر . ويقدمون اليه محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعى . فيقدمها الداعى بنفسه قبل القائها الى الخليفة فيقر ما يقبله منها ويذيله بامضائه . ثم يردها الداعى اليهم

ظلت الدولة الفاطمية تعمل من ناحية أخرى على تقويض ملك الدولة العباسية . فعمدت الى صبغ هذه المحاربة السياسية بصبغة دينية . وتحقيقا لهذه الغاية أسس الحاكم بأمر الله دار الحكمة يعلم فيها الناس الالحاد

حمل الحاكم الى دار الحكمة الكتب من خزائن القصور ووقف لها أماكن ينفق عليها من

ريعها وأقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والاطباء وأجرى لهم الارزاق وأباح لسائر الناس الوصول اليها على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقرأوا وينسخوا ما شاءوا وقد أباح المناظرة بين المترددين اليها

كان الطالب يتلقى فى دار الحكمة بعض تعاليم الاسماعيلية وهى طائفة من فرقة الباطنية التى أسسها عبد الله بن ميمون القداح وتقول بأن تعاليم الاديان باطلة . وأن الفروض التى أدت بها كالصوم والصلاة كذب وشعوذة أريد بهما اخضاع الناس . ويتلقى أيضا بعض تعاليم المانوية التى تهدم وحدانية الله . وبعض تعاليم أرسطو وافلاطون وغيرهم التى تقول بأن تعاليم جميع الاديان يجب أن تخضع لشريعة العقل والعلم . ويعلم الطالب ان الرسل الحقيقيين هم رجال العقل السياسيون الذين ينشئون الحكومات ويؤسسون النظم المدنية للناس . والغرض الاخير لهذه التعاليم احلال الفلسفة محل الدين ورفض الاديان واعتبارها حديث خرافة

ولما انتهت الدولة الفاطمية سنة ١١٧١ م ماتت فى نهايتها هذه النزعة الالحادية لأن دار الحكمة لم تعش بعد هذه الدولة

ولما تغيرت الحالة السياسية فى مصر وأصبح الحكم للأيوبيين ، عادت مصر سنية يخطب خطباؤها فى المساجد للخلفاء العباسيين ، وتغير كثير من النظم والعادات التى كانت متبعة أيام الفاطميين ، وأسست المدارس لكى تعنى بتدريس المذهب السنى . ظل الأيوبيون يحاربون المذهب الشيعى حتى وقعت الحروب الصليبية ، فقاوموها أشد مقاومة وكان الانتصار حليف المسلمين فصدوا بذلك المسيحيين عن التغلغل فى أراضى المسلمين ولولا هذا العمل لتغيرت خريطة توزيع الدين الاسلامى فى الشرق تغيرا عظيما

لم تدم الوحدة الدينية التى كونها الأيوبيون فى مقاومتهم للصليبيين ، وذلك لأن المماليك الذين كان يستخدمهم الفاطميون ثم أخذت الدولة الأيوبية فى استكثارهم كانوا سببا فى تفكيك هذه الوحدة

كان المماليك من بيئات مختلفة يدينون بعقائد متباينة . ورغم تعلمهم قواعد الدين الاسلامى فى طفولتهم الا انهم كانوا فى كبرهم ينتمون اليه ظاهرا . فضعف شأن الدين وكثر الظلم والاستبداد وظل الحال كذلك حتى تولى الحكم بيبرس (١٢٦٠ م) فأراد أن يوطد مركزه ضد أعدائه بايجاد سلطة دينية تناصره فى الحكم وتؤازره فى القضاء على نفوذ الشيعة الذى كان لا يزال باقيا فى مصر فكان سبيله إلى ذلك اعادة الخلافة العباسية وجعل مقرها مصر

بايع الشعب أحد سلائل العباسيين بالخلافة ودعى المستنصر بالله ثم أراد بيبرس أن يعيد اليه خلافته العباسية فى بغداد . الا أن بعض الأمراء أشار عليه أن تكون خلافة عربية قوية فى

بغداد خطر داهم على استقلال مصر فدبر ببيبرس مؤامرة قتل فيها الخليفة . وولى بعده الخلافة أحد سلائل العباسيين أيضا . الا انه لم يعطه من السلطة شيئاً ولم يجعل له أي نفوذ أو دخل فى شئون الدولة . وجعله شخصاً عاديا فى الحاشية مراقباً سجينا لا يبارح القلعة الا باذن السلطان . ومنذ ذلك الوقت أصبح الخليفة وليس له من الخلافة الا أسمها فكان بمثابة متمم للحاشية فى الحفلات الرسمية المهمة . وأهم أعماله الاعتراف بالسلطان الجديد ومنحه البركة بصفته أكبر رئيس دينى اسلامى

وفى سنة ١٤١١ م ثار المماليك بزعامة الخليفة على السلطان فرج بن برقوق وقتلوه لأنه اعتبر خارجا على الدين الاسلامى لضربه سكة للمملكة عليها صورته . ثم اجتمع العلماء والمشايخ وزعماء المماليك وطلبوا الى الخليفة العباسى أن يرتقى العرش ليصون الشريعة والدين من تلاعب المارقين فتولى العرش سنة (١٤١٢ م) ولقب الخليفة الامام المستعين بالله

لم يستكن المماليك لعودة النفوذ الزمنى الى الخلافة . فسرعان ما أصبح الخليفة سجينهم . وتولى الحكم المؤيد شيخ . ومنذ ذلك الوقت حرم الخليفة ثانية من جميع امتيازاته وأصبح عمله الوحيد أن يتبع الجيش فى جميع غزواته ليمنحه البركة

عندما احتك المسلمون بالهنود والفرس والاغريق نزعت أفكارهم الى الصوفية . وتسربت هذه النزعة الى أئمة الدين وصبغت الفلسفة الاسلامية . وانتشرت الافكار الصوفية بين المسلمين فنشأت فرق اسلامية عديدة غايتها التوفيق بين المذاهب الاسلامية والنزعات الصوفية

ويرجع فضل اقتباس المسلمين للأفكار الصوفية الى ثلاثة مدارس : جنديسابور وحوران والاسكندريه — أما الأولى فقد أسسها كسرى أنو شروان ملك الفرس (٥٣١ — ٥٧٨ م) وكان من المتأثرين بتعاليم اليونان . كان يدرس بها كثير من الفلاسفة الاغريق الذين اضطهدهم جوستنيان وكان أغلبهم من الآخذين بالتعاليم الافلاطونية الحديثة . فكان لذلك تأثير عظيم على الافكار الصوفية التى ظهرت فى فارس فيما بعد . ثم وصلت هذه الافكار الى متصوفة المسلمين عن طريق الترجمة والنقل . ومدرسة حوران وهى التى أسسها السريانيون كانت مركزا آخر لهذه الثقافة . ولو أن تأثيرها جاء متأخرا . وكانت تترجم بها الكتب اليونانية الى السريانية . ومن هذه ترجمت علوم اليونان الى اللغة العربية . كان الحورانيون يدينون بدين مزيج من الديانة البابلية واليونانية القديمة والافلاطونية الحديثة لذلك أطلق المسيحيون على حوران « مدينة الوثنيين » وأطلق عليها المسلمون « مدينة الصابئة »

أما الاسكندرية فعاصمة مصر اليونانية وبها ظهر مذهب من أكبر المذاهب الفلسفية هو مذهب الاسكندرانيين أو الافلاطونية الحديثة . ومؤسسه أمنيوس سكاس وهو أول المعلمين

الاسكندرانيين . أو الافلاطونية الحديثة ومؤسسه أنتيوس سكاس وهو أول المعلمين الاسكندريين الذين حاولوا التوفيق بين تعاليم افلاطون وأرسطو وجاء من بعده تلميذه أفلاطون « ٢٩٥ — ٢٦٩ » فنظم هذا المذهب . وكان أكبر مؤيديه والمدافعين عنه . بل عن مؤسسه . وقد امتاز بروحانيته و نقده للمذهب المادى

وقد اتصل المسلمون بمدرسة الاسكندرية فى العهد الاموى والعصر العباسى فنقل النساطرة واليعاقبة كثيرا من كتب اليونان الى اللغة السريانية . ثم نقلوها الى العربية وشرحوها

عظم شأن التصوف فى القرن الثانى للهجرة ولم يكن للمتصوفة فى ذلك الوقت رابطة منظمة تجمعهم أو مكان يزاولون فيه طقوسهم . وانما كانوا يسيرون من مكان الى آخر فيتلون الذكر ويرتلون القرآن . همهم الانصراف عن الدنيا تقربا من الله تعالى وكانوا يعلقون أهمية كبرى على بعض تعاليم الدين الاسلامى ويتركون الاخرى

الا انه كانت منهم جماعة اتفقت مبادؤها وتلاءمت أخلاقها فكانت تعيش فى مكان واحد وكان منهم متزوجون وفضل أغلبهم العزوبة لان العائلة تلهى الرجل عن التقشف والعبادة .ولكن الهيئة الاجتماعية الاسلامية التى أمرت بالاهتمام بالعائلة كالاهتمام بالايمان والعبادة لم تجز هذا الرأي . على انه نما واشتد أمره فيما بعد سنة ٢٠٠ هـ فلم يكد القرن الخامس الهجري يبتدىء حتى دخلت الخانقاة الاسلام . وفيها التأم الجمع . تحت تصرف المريدين وكان ذلك الاصل لحركة الدراويش التى سيطرت على العالم الاسلامى واشتد أثرها منذ القرن الحادي عشر . وحلت الدروشة وهى عبارة عن أساليب خاصة فى الذكر والعبادة محل الصوفية التى هى بعناية نزعة علمية . كانت غاية الدراويش الاتصال بالله بواسطة طرق عدة ومقامات جمة منتزعة مادتها من الحديث والقرآن وأقوال الاولياء . وأكثر هذه الطرق متشابهة من حيث الجوهر . ولو اختلفت وجهات النظر باختلاف المؤلف أو المجتهد

قامت الفرق أثر هذه الحركة وكانت أولها المولوية التى تنسب الى جلال الدين الرومى ثم تلتها الرفاعية وغيرها

تعددت الفرق واختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا وصار الناس لايفرقون بين الشعوذة والدين والعلم تخالف الدراويش وخاصة عامتهم سنن الزهد والتصوف وخرجوا الى الاعمال جماعات لا رابط يجمعها . ويقال ان الطريقة القدريه فى مصر تميزت بصيد السمك . وان رجالها يحملون فى الاعمال والمواسم أعلاما من الشبك مختلفة الالوان والاشكال واتخذ المولوية لبس التنورة ميزة خاصه ٣٣